جدلية الكوني و الخصوصي في التجربة الصوفية

قراءة في كتاب "الفقيه الأعلى" لمحمود حيدر

ثريا بن مسميّه

يشكل عنوان هذا المؤتمر **"فلسفة الكوني و خصوصية الثقافة "** محطة معرفية وإشكالية للحثِّ على صوغ مقاربة ترى الى التصوف كظاهرة تاريخية من جهة وكاختبار روحي للفرد في جهة أخرى. وقد ارتأيت في هذا المجال ان أقارب الكوني و الخصوصي أو الذاتي والموضوعي كوجهين متكاملين لا ينفصلان في التجربة الصوفية.وللتوضيح أقول الخصوصي هو ما تمثله تجارب الأولياء الروحية،وأما الكوني فهو ما يظهر في الاجتماع الإنساني ودور الأولياء في الإحياء الحضاري وتدبير عالم الخلق. من أجل ذلك جاء عنوان ورقتي **" جدلية الكوني و الخصوصي في التجربة الصوفية "** ليضيء على مقام الولي في علاقته بعالم الإنسان بوصفه عالماً موضوعياً يختبر فيه هذا الولي المهمة الإلهية الموكولة إليه.

انطلاقاً من هذه الفرضية سيكون حقل بحثي محاولة استقرائية لكتاب المفكر اللبناني محمود حيدر بعنوان: **"الفقيه الأعلى – واحدية الشرع والكشف في مهمة العارف الخاتم".**

قد يكون عنوان الكتاب مثير للتساؤل، ولذا فهو يستوقفك لتطلّ عليه من باب الفضول،ّ ولكنه سرعان ما يثير فيك حب القراءة، لما يحتويه من مقاربة مفردة في فلسفة التصوف؛ أو فلنقل من رؤية تحاول أن تعبر المقاربات التقليدية المألوفة لتندرج ضمن أبجدية جديدة،ُتعيد رسم إحدى أبرز المفاهيم العرفانية حول نظرية ختم الولاية وتسعى إلى امتلاك ناصيتها .

الكتاب الذي يقدمه حيدر في إطار اشتغاله على ميتافيزيقا التصوف، يعيد سبك ما اختطه العرفاء الكبارعن الولاية الخاتمة، من خلال بسط منفسحات غير مسبوقة في التنظير الصوفي المعاصر. فالمؤلف كما يظهر من أعماله وكتاباته في الفلسفة والفكر والعرفان هو صاحب منهج جمعي تلتقي فيه مفارقات التراث بمفارقات المعارف الحديثة على نصاب الانسجام والوحدة الجدلية بين الأضداد. هكذا يمضي في كتابته حول مفهوم ختم الولاية الصوفية.ليعالج هذا المفهومً الدقيق والشاق بكثير من الاعتناء، متنقلا بك إلى حيث تسكن النفس مع العارف القابض على الحقيقة، فتنظر من مكانك إلى كيفية التحول والترقي في المقامات الموصلة إلى معرفة الله، فتدرك ذلك التكامل بين الشريعة الظاهرة وحقيقتها الباطنة.

في كتابه ذي الفصول العشرة يستظهر المؤلف حالة التناظر بين الولي العارف من جهة والعالم الموضوعي بوصفه موضوعاً للمعرفة من جهة ثانية. الولي العارف –بحسب ما جاء في مستهل الكتاب - هو العبد السائر في مقامات العبدانية من دون أن يفصل مقام

عن مقام. بل ان المقامات تتصل في ما بينها لتشكل عنده مراتب طولية تبتدئ من معرفة دين الله عبر اكتساب العلوم الشرعية، الى معرفة الله من طريق الكشف وتلقِّي الألطاف الإلهية. وعبر هذين الطريقين يتحقق للعارف مقام الولاية ويصير مؤهلاً لتولِّي المرحلة الأخيرة من رحلته في عالم الخلق. والمقصود بذلك مهمة ختم الولاية، بحيث يكون الولي الخاتم هو حلقة الوصل بين الحق والخلق والبرهان على تحقُّق الارتباط والاستمرارية بعالم الغيب بعد انقضاء النبوة.

في معنى الفقه الأعلى والفقيه الأعلى

في المفتتح نقرأ ما يفصح عما قصده حيدر من عمله التأويلي حول مفهوم الفقيه الأعلى فيقول: "ما وجدت من قول وأنا في محضر البحث عن ماهية وهوية ومهمة الولي الخاتم،غير قولي فيه، إنه الفقيه الأعلى.وما رأيت إلى الولاية، بما هي المندرج الثالث في هرم الوجود بعد التوحيد والنبوة إلا أنها الفقه الأعلى. فلقد تراءى لي أن لا أثنينية، ولا تضاد، ولا تناظر بين شريعة حقيقة وطريقة، بل ثمة جمعٌ في الواحدية. فإن مقاصد الوحي مبدأُها واحد وختامُها واحد. وليس التكثُّر في طرائق الإيمان والعرفان، أو في سبل الوصول إلى الله، إلا عين التوّحد في حكمة الاختلاف. لكن الإنسان الذي استحق الخلافة في الأرض ليس كل من تعرفنا إليه بهيئته العنصرية من سلالة آدم، وإنما المستحقُّ هو الآدمي المفرد الذي عُلِّم الأسماء كلها ليكون بالعلم الملقى إليه من عند الغيب أول ظهور مادي للإنسان الكامل.ذلك على علمنا بأن اللطف الإلهي أودع في كل مخلوق آدمي قابلية

العروج إلى الكمال والتعرُّف إليه. وإذا كان تحقق الإنسان الكامل هو بحكم الانتخاب الإلهي لخلفائه من الأنبياء والأوصياء والصديقين والأولياء، فإن عدل الحق ولطفه وجُودِهِ قد خاطب العالمين بالتكريم،ووعدهم بشرف القربى والهداية. فإن هداية الوحي شاملة أفراد النوع الإنساني كله لو فعلوا ذلك... ومن يفعل ذلك فقد شق سبيل الكمال[1].

ولمَّا كانت صفة الإنسان الكامل هي تلك المخصوصة بالولي- كما يبين المؤلف- فذلك يعني أن الولاية هي في حقيقتها علم جاد الحق به على الولي ليعلّم الناس ما حظي به من الجود الإلهي بأسمائه الحسنى. والمعني بالأسماء عند العرفاء، لم ينحصر في بيان واحد. بعضهم قال إن المراد بالأسماء هو أسماء الله الحسنى. وبعضهم رأى أنها أسماء الأشياء وحقائقها، وهو ما يعرف بـ "الأعيان الثابتة"، وآخرون قالوا ما لا حصر له في فضاء التأويل. ومهما قيل يبقى المآل واحد، إذ العلم التام بحقائق الأسماء المقدسة، لا يُتصور من دون العلم بحقائق المخلوقات ومظاهرها.وهذا يدل على الرابط العميق بين ما هو ذاتي وما هو موضوعي في حركة الوجود والعناية الإلهية بهذه الحركة.

من هذا الوجه يُعتبر الولي –حسب التأويل الحيدري - المحرك الأساسي الذي يوصل معارف الوحي ومقاصد الشريعة إلى أفهام الخلق في الأزمنة المتعاقبة بعد ختم النبوة.

---

[1]- الفقيه الأعلى – واحدية الشرع والكشف في مهمة العارف الخاتم – دار المعارف الحكمية – بيروت – 2015 – ص 13.

وفي سياق تأصيله لتاريخية المصطلح ينحو حيدر نحو إعادة تشكيل بنية مفهوم الختم مستعيناً بما ذهب إليه الرواد الأوائل لفقه التصوف ابتداءً من الحكيم الترمذي وصولاً الى ابن عربي واللاَّحقين عليهما.

يرى المؤلف في هذا الصدد ان مصطلح ختم الولاية يعود بدءاً إلى الحكيم الترمذي، فهو أول صوفي بيّن معالم الولاية، وقام بإرساء نظرية معرفية تُميّز بين طريقتين لتحصيل مقام الولاية، أولها طريق الصدق والجهد والعبادة وثانيهما طريق المنّة و الوهب والعبودية، والطريقان يشيران إلى مرتبتين من مراتب الولاية: مرتبة "ولي حق الله" وهذه يتم تحصيلها بالصدق والتنفيذ الكامل لكل الفروض الداخلية المترتبة عن العهود الإلهية.. ومرتبة "ولي الله حقا" وينالها المؤمن بالوهب والمنة الإلهية".

ماهية الولي وصفاته ومقاماته

يقول صاحب كتاب "الفقيه الأعلى" ان الولي بالمعنى الاصطلاحي هو: الصدِّيق، ويدل على الحاكم والمدبر والقائم بالأمر والناصر. وهو في ذلك يرجع الى ما ورد في القرآن الكريم حيث العديد من الآيات تشير إلى صفات الأولياء ومنازلهم.ومن الآيات الدالة على الولاية قوله تعالى:

{أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِ مْوَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ*الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} (يونس:63-62). {إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} (الأعراف: 196)}{اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} (البقرة:257).

في السنة النبوية نجد في الحديث الشريف ربطاً بين الأنبياء والأولياء كقوله(ص):**"إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لأُنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ**، قالوا يا رسول الله فخبرنا من هم، فقال: هم قوم تحابوا بروح الله، بغير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس، وقرأ **{أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّـهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (يونس:62)"**[2].

ينقل المؤلف عن الصوفي الكبير الجنيد تعليقه على هذه الآية بقوله: "من صفة الولي أن لا يكون له خوف، لأن الخوف ترقُّبٌ مكروه يحل في المستقبل، أو انتظار محبوب يفوت في المستأنف، والولي ابن وقته، ليس له مستقبل فيخاف شيئاً. وكما لا خوف له، لا رجاء له، لأن الرجاء انتظار محبوب يحصل، أو مكروه يكشف، كذلك فإن الولي لا يحزن، لأن

[2]- حديث مرفوع. وهناك حديث برواية أخرى صححه الألباني: "عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين رجال ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغشى بياض وجوههم نظر الناظرين يغبطهم النبيون والشهداء بمقعدهم وقربهم من الله عز وجل؛ قيل يا رسول الله من هم؟ قال هم جماع من نوازع القبائل، يجتمعون على ذكر الله فينتقون أطايب الكلام كما ينتقي آكل التمر أطايبه". صحيح الترغيب والترهيب (1508).

الحزن من حزونة الوقت. فمن كان في ضياء الرضا وروضة الموافقة لن يكون صاحب حزن"[3].

الولاية إذن موجودة بحكم العقل و الشرع ولا يمكن إنكارها: وكما عبر عن ذلك السُّلمي، من أن "إنكار ولاية الأولياء، في قلوب الجهّال، عائدة إلى ضيق صدورهم عن المصادر، وبُعد علومهم عن موارد القدرة"[4].

وإن من عادى لله ولياً، فقد بارز الله بالمحاربة، فإن "الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إذا خابوا لم يُفتقدوا. وإن حضروا لم يُدعوا ولم يُعرفوا. قلوبهم مصابيح الهدى. يخرجون من كل غَبراء مُظلمة"[5].

أما ما جاء في بعض كتب الصوفية وعلماء المسلمين، فالولي على سبيل الإيجاز هو:

1. المحفوظ من الله: "من تولى الله أمره وحفظه من العصيان، ولم يخله ونفسه بالخذلان حتى يبلغه في الكمال مبلغ الرجال، قال تعالى: {وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} (الأعراف: 199)"[6].

---

[3]- الهُجويري، كشف المحجوب، ج2، 451، 22. فالولي ابن وقته أي ليس له ماض يحزن عليه ولا مستقبل يخاف منه، راجع القشيري، لطائف الإشارات، مجلد3.

[4]- السلمي، الطبقات الصوفية، القاهرة: الخانجي، ط3، 1997، مادة ولاية، ص 282.

[5]- ابن ماجه، كتاب الفتن، 16 باب من ترجى له السلامة من الفتن. كذلك الحديث التالي: "...حدثني شريك بن عبد الله بن أبي نمر، عن عطاء، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته". البخاري، باب الرقائق، 38 باب التواضع.

عند ابن العربي الأولياء، "هم الذين تولاهم الله بنصرته في مقام مجاهدتهم الأعداء الأربعة الهوى والنفس والدنيا والشيطان"[7]. أما القاشاني فيعرِّف الولي بأنه "قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه، وذلك بتولي الحق إياه حتى يبلغه غاية القرب والتمكن"[8].وهو مستتر قد لا يعرفه من حوله.في حين يقول الترمذي: "الولي في ستر حاله أبدا، والكون كله ناطق عن ولايته، والمدّعي ناطقٌ به، والكون كله يُنكر عليه"[9].

الولي ورسالته في عالم الخلق

على هذا الوجه من صفات الولي العارف– كما يبِّينها المؤلف- يمكننا أن نتعرّف الى الخطوط البيانية العامة للتكليف الإلهي وهداية الحق لأوليائه من أجل تدبير العالم الإنساني وإصلاح شوائبه.فإذا كانت مهمة الأنبياء تتمثل في تبليغ القانون الإلهي مباشرة إلى الخلق- كما يقول حيدر- فإن مهمة العارف الولي تكون عبر الشرح والتفصيل، وبهذا يكون كل نبي ولي ولا يكون كل ولي نبي، وعلى هذا النحو يصبح الولي العارف حاملاً للأمانة الملقاة على النبي الخاتم، الأمانة المتمثلة في تدبير شؤون الناس وإخراجهم من الجاهلية إلى المعرفة، فيعلم الناس ما حضي به من جود الأسماء، تأسيا بقوله(ص) "يجعل الله على رأس

---

[6]-القاشاني، اصطلاحات الصوفية، تحقيق: محمد كمال إبراهيم جعفر، الهيئة المصرية للكتاب، 2008، ص 54. انظر كذلك الرسالة القشيرية، ج2، ص 334.

[7]- الفتوحات، ط صادر، ج2، ص 53. وهو المفهوم نفسه عند القشيري، حيث يقول إن الولي هو: "من يتولى الله سبحانه أمره، فلا يكله إلى نفسه لحظة، أو هو الذي يتولى عبادة الله وطاعته. أي هو الذي توالت طاعاته لربه، وارتفعت درجات قربه"، الرسالة القشيرية، ج 2، سبق ذكره، ص 737.
ولابن عربي شرح خاص لمفهوم الولاية بمعنى النصرة من أن النصرة هنا تشمل المؤمنين كافة {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ} (البقرة: 257)، ليس المؤمنين الموحدين فقط، إنما تشمل حتى الكافرين والمشركين، يمكن الرجوع إلى شرح هذه الفكرة إلى شودكوفيتش، ص ص 81- 83.

[8]- القاشاني، اصطلاحات الصوفية، ص54. من المعاني الشائعة للولي القرب وهو مستوحى من القرآن الكريم {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ} (الواقعة:10-11).

[9]- أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، سبق ذكره، مادة ولاية، ص 282.

كل قرن وليا يجدد به دينه" بمعنى انه يقوم بتعليم الأمة وترتيبها وهدايتها إلى صراط الوحي النبوي.

فمن بلغ مقام الإخلاص الكامل لله من الأولياء العرفاء بالله يحملون على عاتقهم مهنة تعليم الأسرار الإلهية لمتعطشي وادي المعرفة ومولهي عالم لقاءات الذات الأحدية والفناء فيها.

عند هذه النقطة بالذات يؤكد صاحب الكتاب، على أن أولياء الله والأفراد الذين ارتقوا إلى مقام الكمال الإنساني قد يتعددون في كل زمان، بحيث يكون كل ولي منهم لائقاً لهداية السالكين وإرشادهم، أما الولي الخاتم للحقيقة المحمدية فهو صاحب الولاية الكبرى، وهو عند أهل الولاية واحد في كل عصر...

ومن صفات العارف الواصل (أو الولي الخاتم) أن يكون متعبداً بما جاءت به الشريعة كركن أصيل لكل طالب للولاية، لذا ذهب التنظير الحيدري إلى ان على السالك حفظ قوله وعمله من فتنة الفصل بين الشريعة والحقيقة.إلا أنه مع ذلك لا يقدر على شرح ما هو عليه من أحوال. فالعارف مختص بالكشف وبحقائق الغيب وهي حالات معنوية تحول دون التعبير عنها لفظا وهو ما ينعته الكاتب باستعصاء الكشف على البيان.

على هذا المنهج التأويلي يقدم لنا حيدر بيانا تعريفياً في ماهية الولي الخاتم،وكذلك في علاقة الولاية بالنبوة ليؤكد حقيقة جوهرية مؤداها حاكمية الشرع على الكشف.أي ان

الشريعة الإلهية هي الأساس الذي ينطلق منه الولي لمواصلة معراجه العرفاني والوصول الى أعلى مقامات الولاية وينال شهادة ختمها. وهذا ما سيوضحه المؤلف في الفصل العاشر والأخير من الكتاب الذي أورده تحت عنوان "مقام الفقيه الأعلى"، وهو المقام المحصِّلِ للإيمان الأقصى بالعلم والعمل.ذلك بأن العلم نظير العمل في مجاهدات الولي العارف فلا يتم علم بلا عمل كما لا يصلح عمل بلا معرفة؛إذ أن كل مسألة لا يُبنى عليها عمل فإن الخوض فيها غير مستحسن، والعلم المعتبر هو العلم الباعث على العمل.

على هذا النحو من التحليل يؤطر المفكر محمود حيدر جدلية العارف والمعروف على قاعدة الارتباط الجذري بين فقه العلم بالله وفقه العلم بمقاصده.وعليه فإن الولي الخاتم هو شخصية جامعة بين الشريعة والحقيقة والطريقة من خلال الإيمان والعلم والعمل، وإذا ما بلغ هذه الدرجة من الفضل والقرب وجب عليه العود إلى الناس ليجود عليهم من كرامات الحق بأوامره نواهيه. وبهذا يكون العارف في مقام التكليف ما بين صعود بذاته عن طريق العلم والمجاهدة والكسب الإلهي وبين نزول من الحق إلى الخلق بالأوامر والنواهي من خلال علم التشريع. من هنا يتبيّن لنا أن جدلية العارف والمعروف في الاختبار الصوفي هي جدلية تعمل بالأساس بين عالمي الغيب والحضور، وما بين النص المقدس وتشريعه كما بين الولي والخلق أي في إطار التعايش المشترك بين الخصوصي و الكوني .